الفصل الأول

القاهرة.. بنت الصحراء

القاهرة، أكبر المدن الصحراوية (٤١٤ كيلو مترا مربعا، ٣,٣٤٨,٠٠٠ نسمة حسب تعداد سنة ١٩٦٤ التقديرى) لها لون صحراوى، والذى شادها هو إيمان ربيب الصحراء، وأفضل لقاء لها هو من ناحية الصحراء عبر طريق للسيارات يبدأ من البحر الأبيض المتوسط ويمتد ١٣٠ ميلا وسط بيداء متموجة غير مقبقبة إلى أن يتصاعد خلف الأهرامات ليهوى إلى واحة الوادى، فيتراقص على مساره من نفث عاصمة كبيرة أطياف ألوان ما بين الرمادى والبنى، حتى الطائرات فأنها لا تتفادى رؤية الصراع بين الحياة والموت عند اقترابها

إلى ممر الهبوط فوق كثبان من الرمال الجرداء.

والقاهرة مشادة من بطن الصحراء التى تتشبث بحضنها. فالأهرامات العجائب التى أقامها خفرع وورثته قد تألفت من آلاف آلاف كتل من حجر رملى جرى نحتها أولا من تلال المقطم ثم دفع بها إلى الغرب طوفا على الماء عبر الوادى إذ النيل فى عز فيضانه مجتازة موقع المدينة اليوم، وشاع بعد ذلك استخدام هذه الكتل الميسرة من لحم الصحراء المتجمد فى عمارة الأمراء المسلمين للمساجد والقصور.

أما اليوم فقد رجع جانب كبير من المدينة إلى صحراء النسيان، فقاعة الذهب التى كان يطل منها الخليفة المعز على حفلات بلاطه من خلف ستارة نسجها ووشيها من خيوط الذهب قد اندثرت هى والحجرات الأربعة الآلاف التى كان يضمها قصره بما تحويه من رقيق جلب من اليونان والسودان الذى كانوا يحفون به ليكونوا تحت رهن إشارته، وكذلك لم يبق أثر لبهو الزبرجد فى الديوان الكبير، وتلال المقطم التى جاءت منها الأهرامات

والتى تلقى منها الشمس عند مطلع الفجر أول تحية لها على أبى الهول فى الغرب لا تزال تتعلق بها مساجد خربة كأنها تهويمات لم تتم من وحى أسطورة قوطية.

أن الصحراء تغزو المدينة سواء فى ذلك طرقاتها الفسيحة أو الأزقة المتعرجة فى الأحياء القديمة، وتهب رياح الخماسين من ليبيا فى شهر مايو تحمل معها ترابًا ناعما يتسرب من خلال أحكم النوافذ فيضفى على المدينة - زرعها وأبنيتها - كساء من مسحوق رمادى. أن أهداب المصريين الطويلة هى سلاح ضد التراب، لا مجرد زينة..

ومباهج القاهرة - شأنها شأن مباهج الصحراء - تزداد جلاء لأنها فوق لوحة متربة. عديدة محال بيع عصير المانجو وقصب السكر لإرواء الحلوق الجافة من العطش الشديد. وفى أركان معتمة رثة الحظ تتألق زهور بألوان متوهجة. وحينما تغيب الشمس أخيرًا بعد نهار قائظ من وراء فندق هيلتون تسرى من فوق أرض الطرقات رائحة فريدة هى خليط من أنفاس الفل

والياسمين وزخمة وحوش الفلا.

والصحـراء كالبحـر، هيهـات أن يقـال عنهـا خـلاء محصن، بـل أنها ملتقى قوى عـديـدة، وكـما ربط البحـر ما بين الجزر اليونانية فى العهـود الخوالى، فـان الصحراء ربطت بين البعيد والبعيد من أقطار الشرق الأوسط. وقد وفد الزوار والسياح على مكان القاهرة منذ فجر التاريـخ فهى وأن اتخذت اسما عربيا فقد حظى مـوقعها بـاهتمام كبير من قبل أن ينتشر العرب من جزيرتهم بزمن طويـل فعند هذا الموقع الذى يزداد فيـه النيل رحـابة ليضم بـين ذراعيـه أرض الدلتـا، وهى على شكـل مـروحـة، أقـام الفراعنة عاصمتهم منف (وهذا الهـرم المدرج فى سقـارة، وهو أقدم بناء من الحجر فى العالم كله. لا يزال يـطل على مقابر منف، تـراه بالعـين المجردة من أعـلى العمارات فى القاهرة) وقـد أقام الفـراعنة أهم مقـابرهم فـوق هضبة الجيزة، لا تبعد عن قلب القاهرة - ميـدان التحريـر - إلا مسـافة ٤٠ دقيقـة بالاوتـوبيس رقم ٨. ومدينـة عين شمس - هليـوبوليس الآن يـربطهـا بالقـاهـرة قـطار المترو - كانت لها سمعة عالمية فى العلوم، ولكهنتها فضل

على هيرودوث وأفلاطون. وقد أطلق اسم عين شمس على واحدة من جامعات مصر الأربعة.

وأشد زائرى القاهرة تأثيرًا عليها لم يأتوا ببضاعة التجارة، بل بأفكار دينية، فالقاهرة اليوم - شأنها فى ذلك شأن مدن كثيرة - وليدة أحداث موجة من سلسلة أمواج المد البشرى، تتناثر فيها شواهد عديدة على تعاقب الأديان. فقد أقام العبرانيون (الذين ذكرهم القرآن باسم بنى إسرائيل) فى شرق الدلتا وقاموا بنصيبهم فى صناعة الطوب، ثم استوطنت جاليات يهودية - قبل ميلاد المسيح بعدة قرون - على ضفاف النيل، وكان أكبر مراكزهم فى الإسكندرية بالقرب من مصب فرع النيل الغربى، حيث شرح أفلوطين نظريته عن التوحيد بتعبيرات الفلسفة اليونانية، وقد تبنت الكنيسة نظريته عن «اللوجوس» أو «الكلمة» فى شرح عقيدة التجسد الإلهى، ولكن العائلة المقدسة اختارت المدينة الرومانية بابلون فى مصر - وهى مكان القاهرة اليوم - ملجأ لها عند خروجهم من فلسطين هربًا من طغيان هيرود. ولا يزال الرهبان الأقباط يقودون زوار كنيسة

أبو سرجة لمشاهدة قبو رطب حيث نام «اللوجوس» وحراسه. بالقرب منها يوجد كنيس لليهود يحوى نسخة ثمينة من التوراة.

ولكن لا الكنائس ولا الكنيسات تغلب على افق القاهرة، فهذه المدينة ليست باليهودية ولا بالنصرانية. إنها مدينة مسلمة نشأت بفضلٍ دين محمد النبى العربى. هى عند المسلمين لا تقل جلالاً عن مكة، التى تتجه إليها قبلة الصلاة فى مساجد القاهرة، ولا عن المدينة مثوى الرسول. وإذا كان الأفق من حول القاهرة قد ارتسمت عليه منذ سنة ١٩٥٢ظلال ناطحات السحاب وصروح أخرى هندسية، فإن العين لا تلحظ على هذا الأفق إذا ترامت نظرتها فوق الأسطح الغبراء إلا المآذن المشرئبة للسماء، يتردد منها صوت المؤذن للصلاة خمس مرات فى اليوم.

وللقاهرة - لأنها مدينة صحراوية - ثروة نباتية تنفرد بها: زهور لا تنمو فى الشمال إلا داخل بيوت من الزجاج وأشجار تضفى زينتها على ما حولها من قتامة،

أشجار الكافور التى تخشخش أوراقها الرقيقة، أشجار السنط التى لا ترهب الجفاف، أشجار الجميز، أشجار التين البنغالى التى تتهدل منها فروع متجهمة لتنبت منها جذور أشجار جديدة معتمة، ثم النخلة التى جعل القرآن ولادة المسيح تحتها. وإذ كانت السماء لا تمطر إلا نادرا فان اللون الأخضر يشوبه على الدوام صفرة مغبرة..

ولكن دع عنك النبت والحجر، فإن الذى يجعل القاهرة فريدة بين المدن الصحراوية إنما هو هذا النهر الذى يهبها الحياة، فالمدن الأخرى التى تقوم فى الصحراء حيث الواحات إنما يغلها العطش ويهددها، أما القاهرة فالصحراء عندها يشقها النيل - أطول أنهار العالم القديم - يحمل إليها العطايا من شاطئ الأطلسى عبر الغابات والأحراش والجبال والوهاد فى أفريقية الوسطى.